فصل

لما أتم رسول الله ﷺ والمسلمون معه فتح مكة : اقتضت حكمة الله أن أمسك قلوب هوازن عن الإسلام ، لتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر حزبه على الشوكة التي لم يلق المسلمون مثلها . فلا يقاومهم أحد بعدُ من العرب . وأذاق المسلمين أولاً مرارة الكسرة ، مع قوة شوكتهم ، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل حرمه كما دخله رسوله ﷺ واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ، حتى إن ذقنه ليكاد يمس قُربوس سرجه تواضعاً لربه . وليبين سبحانه -لمن قال : «لن نغلب اليوم عن قلة»- أن النصر إنما هو من عنده سبحانه ، وأن من يخذله فلا ناصر له غيره . وأنه سبحانه الذي تولى نصر دينه ، لا كثرتكم . فلما انكسرت قلوبهم ، أرسل إليها خِلَع الجَبْر مع بريد النصر : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾(١) وقد اقتضت حكمته أنَّ خِلَعَ النصر إنما تفيض على أهل الانكسار : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾(٢) .

غزوة الطائف :

ولما أراد المسير إلى الطائف -وكانت في شوال سنة ثمان- بعث الطفيل ابن عمرو إلى ذي الكَفَّين -صنم عمرو بن حممة الدوسي- يهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف -فخرج سريعاً ، فهدمه وجعل يحثو النار في وجهه ويقول :-

(١) من الآية ٢٦ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٥ من سورة القصص .

يا ذا الكفين ، لستُ من عُبّادكا ميـلادنـا أكبـر من ميـلادكـا

إني حشـوت النـار في فؤادكـا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً . فوافوا النبي ﷺ بالطائف -بعد مقدمه بأربعة أيام- وقدم بدبابة ومنجنيق .

قال ابن سعد : لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم ، وتهيأوا للقتال . وسار رسول الله ﷺ . فنزل قريباً من حصن الطائف . وعسكر هناك . فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً ، كأنه رِجْل جَراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة . وقتل منهم اثنا عشر رجلا . فارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم . فحاصرهم ثمانية عشر يوماً . ونصب عليهم المنجنيق -وهو أول من رمى به في الإسلام- وأمر بقطع أعناب ثقيف . فوقع الناس فيها يقطعون ، فسألوه : أن يدعها لله وللرحم . فقال رسول الله ﷺ : «فإني أدعها لله وللرحم» .

ونادى مناديه : «أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا . فهو حر» فخرج منهم بضعة عشر رجلا ، فيهم أبو بَكَرَة بن مسروح ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه .

ولم يؤذن في فتح الطائف . فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأذن بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ، ولم يفتح علينا؟ فقال رسول الله ﷺ : «فاغدوا على القتال فغدوا ، فأصابهم جراحات . فقال النبي ﷺ : «إنّا قافلون إن شاء الله» فسروا بذلك . وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك .

فلما ارتحلوا واستقلوا قال : «قولوا : آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا

حامدون» وقيل : يا رسول الله ، ادع الله على ثقيف ، فقال : «اللهم اهد ثقيفاً وائْتِ بهم» .

ثم خرج إلى الجِعِرَّانة . فدخل منها إلى مكة محرماً بعمرة فقضاها . ثم رجع إلى المدينة .

* * *